ضريح قصر الدويرات في مدينة لبدة الاثرية

أ.خالد محمد الهدار



كان هذا الضريح معروفا لدى الليبيين القاطنين في لبدة وضواحيها ، في موقعه في المنطقة التي عرفت باسم قصر الدويرات الواقعة على الجانب الايسر من وادي لبدة وتحديدا على مسافة كيلومترين الى الجنوب الغربي من مدينة لبدة الاثرية اي في جبانة المدينة الواقعة خارج أسوار المدينة ، وتسمية الدويرات يبدو أنها تصغير لكلمة دار اي حجرة لاحتواء الضريح على مجموعة من الحجرات الصغيرة . ومن ناحية اخرى هناك صورة التقطت لهذا الضريح في عشرينات القرن العشرين يظهر بها احد الليبيين برفقة اثنان من الايطاليين قام بارشادهم لهذا الاثر ، الذي اهتم به بعض الاثريين الايطاليين مثل بارتوتشيني وروماناللي و الاخير قام بوصفه ودراسته في كتابه عن لبدة الصادر عام 1925 (ص .165-167)، وقد نشر له صورة اتضح منها انه كان مهدما ولم يبق منه قائما الا الطابق

الارضـي منـه وتتـوزع بقايـاه هنـا وهنـاك (شـكل 93-96) كـان مـن بينـهـا النقش التـذكاري الـذي نشـر اكثـر مـن مـرة آخـره عـام 1952 . وتوضـح الصورة وطريقة تهدم جدرانه انها حدثت بفعل زلزال ضـرب المنطقـة ادى الـى تهدم هذا الصـرح . وتنبغي الاشـارة ايضـا الـى ان الضـريح اشـار اليه الامير النمساوي لودفيغ سلفاتور اثناء زيارته للبدة فـي شـهر مـايو مـن عـام 1873.

وقد بقى الضريح في مكانه دون ترميم ، وبعد ان اصـبح مـن الخطـر وجوده فـي مكانـه الاصـلي بسبب مد خط ضـغط عـالي الـى جانبـه ، ولكـي يحافظ عليه قرر نقله من مكانه الى حديقة متحف لبـدة الاثـري ليكـون جـزء من العرض المكشوف ، وقد تكفل بمهمـة نقـل هـذا الضـريح البعثـة الاثريـة الفرنسية في ليبيا برئاسـة البرفسـور اندريـة لارونـد بالاشـتراك مـع مصـلحة الاثـار الليبيـة ، وربمـا جـاءت فكـرة نقـل هـذا الضـريح مـن ضـريحين نقـلا سـابقا مـن مكانهمـا الاصـلي همـا : الضـريح رقـم (G) بالجبانـة الجنوبيـة بقرزة الذي نقل من مكانه الاصلي ليعاد تركيبه فـي مجمـع متـاحف السـراي الحمـراء ، كمـا نقـل ضـريح منطقـة ام العجـرم عـام 1998 ليعـرض فـي ساحة مكشوفة بمتحف بني وليد الاثري ، وقد نقلا بواسطة ايدٍ ليبية.

عمومـا اسـتمرت عمليـة نقـل ضـريح الـدويرات عـدة سـنوات وفقـا لاحدث الطرق العلمية للنقل والترميم ، وقد احتفل بافتتاحـه رسـميا فـي 10 /2/ 2009 ، وفي 12 /2009/3 القى البرفسور لاروند محاضرة عن تـرميم هـذا الضـريح امـام اكاديميـة بـوردو ، ومحاضـرة اخـرى فـي 2009/11/12 فـي جامعـة ليـون الثانيـة حيـث وصـف هـذا الضـريح

ومراحل ترميمه ،ويمكن للزائر ان يشاهد هذا الضريح في حديقة المتحف على يسار الداخل من المدخل الرئيسي ، وعند زيارتنا الاخيرة له في 2010/8/5 والتقاط بعض الصور لهذا الضريح الذي اعجبنا بعمارته وترميمه اردنا تعريف القاريء باحد معالم مدينة لبدة المنقولة من مكانها الاصلي.

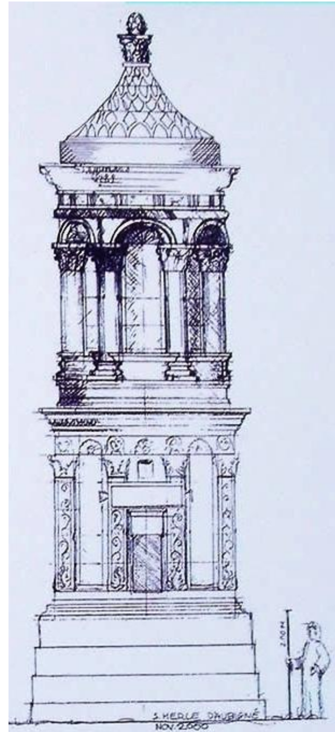


وقبل البداية في وصف هذا الضريح تجدر الإشارة إلى أن هذا النوع من المباني يطلق عليه الاثريون اصطلاح موزاليوم (Mausoleum) نسبة الى الضريح التذكاري الذي بني على قبر الملك موسولوس (Mausolus) في هاليكرناسوس (حاليا في تركيا) الذي عاش في القرن الرابع ق.م. الذي يعد احد عجائب الدنيا السبع القديمة ، وفي الوقت نفسه من اقدم الاضرحة المعروفة في الحضارة الاغريقية ، والاضرحة اساسا هي مباني منفردة

تتميز بالارتفاع تبنى اعلى مقابر الشخصيات البارزة ، وفي الكثير من الاحيان يمثل الضريح القبر نفسه ، وبهذا يمكن تتبع اصولها في الاهرامات التي بناها ملوك مصر القديمة ، ويلاحظ انتشار الاضرحة في العصر الروماني في جبانات العالم القديم واستمرار استخدامها في غالبية الحضارات القديمة ، وقد تواصل استعمال الاضرحة حتى عصرنا هذا. وعند النظر الى جبانات المدن الاثرية في ليبيا يلاحظ انتشار عدد من الاضرحة بها يمكن الاشارة الى بعض الامثلة : منها اهرامات الحطية وضريح الواطوط التي تنسب الى الجرامنت ، وتنتشر في جبانات كيريني (شحات) بعض الاضرحة التي ترجع الى العصر الهلنيستي ، كما ان ضواحي كيريني تحوي على بعض الاضرحة مثل منطقة صنيبات العويلة قرب رأس الهلال وغيرها ، ويشار ايضا الى الضريح الضخم في الجبانة الغربية بمدينة طلميثة الاثرية .وهناك ضريحان بمدينة صبراتة الاثرية يرجعان الى العصر الهلنيستي ، وتوجد الكثير من الاضرحة التي ترجع الى العصر الروماني وتنتشر في منطقة طرابلس والجبل الغربي ومنطقة الاودية الليبية في جنوب اقليم المدن الثلاث وسيأتي ذكر امثلة منها فيما بعد ، كما يوجد ضريح مسيحي يرجع للقرن السادس الميلادي في مدينة سوسة الاثرية.

وبعد هذه المقدمة جاء دور وصف ضريح الدويرات الذي تمثل في مبنى مرتفع يصل ارتفاعه الى حوالي 12 مترا ، بني على قاعدة حجرية مستطيلة الشكل تتكون من اربعة صفوف من الكتل الحجرية يصل ارتفاعها مجتمعة الى مترين وهي غير مزخرفة ، يعلو هذه القاعدة الطابق الاول بارتفاع 3.55 مترا ، وتمثل في حجرة مربعة الشكل استخدمت

للدفن، يوجد بها مدخل ضيق و صغير في احدى واجهاتها ، وقد اقيمت على قاعدة مدرجة ، كما زخرفت واجهاتها الاربع من الخارج بزخارف معمارية متنوعة تمثلت في اربع دعامات مزخرفة بزخارف نباتية اهمها اوراق الاكانثوس ومتوجة بتيجان كورنثية ، حيث توجد دعامتان في كل زاوية ، ودعامتان في المنتصف ، وقد حصرت الدعامات الاربع ثلاث مساحات مستطيلة مجوفة او محدبة قليلا تظهر كأنها محراب ، هذه التجويفات الثلاث يلاحظ وجودها في الواجهات الخارجية الثلاثة لحجرة الدفن ، اما الواجهة الرابعة فهي التي يوجد بها المدخل الذي حل محل التجويف الاوسط ، وهو يتوسط الدعامتين وعارضته مزينة ايضا بزخارف نباتية ، كما يعلو هذه العارضة لوحة حجرية عليها النقس التأسيسي لهذا الضريح ، الذي سيأتي الحديث عنه.



يوجد اعلى التيجان الكورنثية الاربعة للدعامات ساكف (ارشيتريف) يتكون من مجموعة من الكتل الحجرية نحتت عليها اشكال آدمية متنوعة منحوتة نحتا بارزا ، بحيث يوجد اعلى مستوى كل تاج نحت بارز لرأس سيدة تظهر كأنها ترتدي خوذة ربما تمثل المؤلهة اثينا ، و اعلى مستوى كل تجويف يوجد تجويف صغير على شكل نصف دائرة مزخرف باشكال اشعاعية ويتوسطه نحت لرأس لشخص حليق الشعر ، صورت الاشعاعات كأنها تظهر من رأسه ربما يمثل مؤلهة النصر او مؤله الشمس، وهذه الزخارف تظهر واضحة واكثر حفظا في بعض الواجهات لاسيما واجهة المدخل واحيانا تختفي بسبب تآكل الحجر ، وقد اعيد ترميم بعضها. وينتهي هذا الطابق بكورنيش منخفضة بزخارفه المعمارية المتنوعة مثل زخرفة الالسنة والسبحة وغيرها.

اما الطابق الثاني من الضريح الذي يرتفع بحوالي اربع امتار فهو مستدير الشكل ، يقف على قاعدة مستديرة ومرتفعة قليلا التي بدورها تحمل ست اعمدة رخامية ذات ابدان باخاديد حلزونية وتيجان كورنثية تطوق حجرة مصمتة ذات واجهات مجوفة على شكل محاريب ، وهناك ستة اقواس نصف دائرية مزخرفة بزخارف نباتية تعلو تيجان الاعمدة ،وهي بدورها تحمل افريزا دائريا يتكون من لوحات مسطحة (ميتوب) ولوحات ثلاثية الاخاديد (تريقليف)، كانت اللوحات المسطحة مزخرفة بنحت بارز لبعض الشخوص تمثل مؤلهة القمر ومؤله الشمس ضاعت اغلبها ، وقد نشر رومانللي صور لتلك اللوحات بمنحوتاتها ، ينتهي هذا الطابق بكورنيش مزخرف بالكثير من الزخارف المعمارية البارزة ، ولقد غطي الضريح بقبة مخروطية او قمعية الشكل بارتفاع 230 سم سطحها

الخارجي مزخرف بما يشبه زخرفة قشور السمكة ، تنتهي قمة القبة ما يشبه التاج الكورنثي تعلوه كرة على شكل ثمرة الصنوبر.

ومن خلال الشكل العام لهذا الطراز من الاضرحة فانه ينسب الى طراز الاضرحة التي على شكل برج (-Tower Tombs /Tombeau Tour) هذا الطراز المعماري من المقابر الذي يرجع اول ظهور له في منطقة شمال شبه الجزيرة العربية والاردن ومنها انتشر الى منطقة الشام وتركيا واوروبة وشمال افريقيا وتحديدا في تونس والجزائر وليبيا، حيث يمكن تتبعه في ضريح دوقا بتونس الذي يرجع الى القرن الثاني ق.م. وضريح صبراته الهلنيستي ، واستمر هذا الطراز في العصر الروماني حيث ظهرت امثلة عديدة منه في جنوب منطقة طرابلس شبه الصحراوية حيث لوحظ وجود ما يقرب من 15 ضريحا متوزعة بين قرزة و ام العجرم ، وفي جنوب مزدة وقرب القريات الغربية ، وفي وادي العمود وفي وادي نفذ ، وغيرها ، ومما تجدر الاشارة اليه ان الاضرحة الليبية السابقة تتميز بانها تشبه المسلة فهي مستدقة وتنتهي في الاعلى بما يشبه الشكل الهرمي ، وهناك ضريح كان موجودا في لبدة رسمه الرحالة لودفيغ سلفاتور عام 1873 ثم الرحالة ادوارد راي عام 1877 وهو ينسب الى هذا الطراز ، وعند مقارنة طراز ضريح الدويرات بالاضرحة السابقة يبدو ان الاخيرة قد حلت محل الاضرحة التي تشبه ضريح الدويرات التي انتشرت في مدينة لبدة الاثرية منها ما يعرف باسم قصر شداد بجانب المسرح المدرج شرق مدينة لبدة، وهناك ضريح في وادي مقدال في بني وليد من طراز ضريح الدويرات ، اضافة الى ضريح هنشير سويفت قرب يفرن ، وضريح منطقة العربان بالجبل الغربي الذي يشبه كثيرا ضريح

الـدويرات. اضــافة الــى ضــريح سـوق الجمعــة فــي زلـيطن ، واذا كانــت الاضـرحة السـابقة تشبه ضـريح الـدويرات مـن الناحيـة المعماريـة ، الا ان الاخير يتفوق عليها بكثرة زخارفه المعماريـة والنحتيـة التـي لا تشـاهد فـي الاضرحة السابقة.



اما النقش التأسيسـي فقد سبقت الاشـارة الـى انـه يوجد علـى كتلـة حجرية اعلى عارضة المدخل ابعادها 1.24 م طولا ، 51 سم ارتفاعـا ، 40 سم عرضـا، تحوي نقشـا يتكون من اربعـة اسطر مـن الكتابـة اللاتينيـة الخشنة ، ارتفاع حروفه يتراوح مـا بين 4.5-6.5 سم ، وقد كانـت كتلـة النقش مكسورة الـى جزأين قبل ترميمهـا ، وقد نقشـت الكتابـة داخل لوحـة مقولبـة بمقبضـي تعشيق (moulded tabella ansata) كل مقبض يوجد داخله ورقة لبلاب ، والنص على النحو الاتي:

CMARIOIOVINOETCMARIOET
MARIAEVICTORINAEETMARSOFEIVS
CMARIVSPVDENSBOCCIVSZVRGEMETVELIA
LONGINABIBAIPARENTESF[···]·ISETNEPOTIFECERVNT

وقد كانت قراءته وفقا لنشره في كتاب نقوش منطقة طرابلس الرومانية تحت رقم 729 على النحو الاتي:

C(aio) Mario Iouino et C(aio) Mario et
Mariae Victorinae et Marso f(ilio) eius
C(aius) Marius Pudens Boccius Zurgem et Velia
Longina Bibai parentes f[il]ịis et nepoti fecerunt

ويترجم الى العربية :
الى جايوس ماريوس يوفينوس و جايوس ماريوس وماريا فيكتورينا وابنها مارسوس ، جايوس ماريوس بودينس بوكخيوس زورجيم وزوجته فيليا لونجينا بيباي ، عمل والديهم هذا الضريح لاطفالهم وجدهم.

ويتضح من خلال الاسماء اللاتينية المنسوبة الى عائلة زورجيم ان هذا الضريح كان يخص عائلة ليبية الاصل حمل اولادها واحفادها اسماء لاتينية ، ومن ثم فهم حملوا المواطنة الرومانية اي صاروا رومان لكن اصولهم ليبية ، وهي عائلة ميسورة الحال حيث يدل هذا الضريح على غنى هذه العائلة التي من المؤكد ان بعض افرادها تولى بعض المناصب العليا بمدينة لبدة في العصر الروماني في عصر الامبراطور سيبتموس سيفيروس.

وبناء على اشكال حروف هذا النقش والطراز المعماري لضريح الدويرات يمكن تاريخ هذا المعلم بحوالي 200 م او بداية القرن الثالث الميلادي.

ومن خلال العرض السابق يتضح قيمة هذا الاثر المعماري الجنائزي من حيث اكتمال عناصره ، ونسبته الى احد الاسر الليبية ، كما انه مثال على المحافظة على المعالم الاثرية عندما تصبح عرضة للخطر فتنقل من مكانها للمحافظة عليها ، وان وضعه في حديقة متحف لبدة يعد استكمالا لما يعرضه متحف لبدة الغني بمعروضاته.